

بطاقة تعريف العنصر

الزليج أو الزلّايّج، معارف ومهارات وفن الزخرفة بالخزف المينائي

2023/A/03

1- أصل مصطلح الزليج

تشير كلمة الزليج حسب معجم المصطلحات الفنية إلى بلاطة من خزفيناّي التي كانت في الأصل بلاطة من الطين المطهو مغطاة بمينا معتم. وهي كلمة عربية الأصل تتعلق بكلمة "زُجج" مُعرّفة في معجم لسان العرب بالصخور الملساء، والمشتقة من جذر فعل "زَجَج" بمعنى زَلَقَ (ابن منظور، دت). يتداول لفظ "الزَّلَايِج" في اللغة العربية الجزائرية، الذي يشير إلى سطح أملس مركب من بلاطات خزفية تحتوي على زخارف مختلفة ومتنوعة أو قطع خزفية صغيرة مختلفة الألوان تشكل تركيبات هندسية ونباتية. يعتبر الزليج عنصرا مميّزا للعمارة الإسلامية، واستعمل على نطاق واسع لتزيين الجدران والنافورات وعناصر تزيينية أخرى، حيث يرمز الى الفن والثقافة الجزائرية.

2- تعريف ووصف العنصر

الزليج هو شكل من أشكال الخزف المينائي، يستعمل لتزيين مختلف المباني كالقصور والمسكن والمساجد والمدارس والأضرحة. يرمز هذا التعبير الفني للعمارة الإسلامية، ويشمل زخرفة الأرضيات والجدران وأحيانا الأعمدة والأقواس والسلام والنافورات. تتكون هذه التقنية من بلاطات وقطع صغيرة تدعى بالفسيفساء الخزفية، تُشكل بالقبولة في الطين أو بالقطع أو بالقص في أشكال متباينة ومطلية وفق تصميم مسبق. يتم ترتيب هذه العناصر الخزفية وتركيبها جنباً إلى جنب لتشكّل نماذج معقدة ومتداخلة، غالبا ما تكون هندسية ونباتية، مزينة أحيانا بكتابات، يلعب فيها تعدد الألوان دورا مهما. تعتمد ممارسة الزليج على مبادئ رياضية حسابية مثل الإشعاع والتكرار والدوران، ممّا يساهم في تعقيدها، ضف إلى أناقتها المتميزة والتي تبين معارف ومهارات الممارسين لها، وتحفز حسن الإبداع في فن التسطير. يتجاوز هذا الفن الوظيفة الجمالية أو النفعية لاستعمالات وممارسات ثقافية للمجتمع.

3- عناصر تاريخية

تطوّر الخزف في الزخرفة المعمارية على مراحل من الشرق إلى الغرب. وتمّ كشف عن أولى الألوان المينائية في حوالي 4000 سنة قبل الميلاد في مصر القديمة، حيث استعملت عجائن محلية متكونة من رمل وبتون لتشكيل طبقة زجاجية رقيقة. استعمل حرفيو بلاد الرافدين ألوان مينائية قلبية لماعة لزخرفة الأفران مثل بوابة عشتار في بابل.

في العالم الإسلامي، تعتبر بلاطات سامراء إلى يومنا الحالي، أول نماذج من الخزف المينائي، ويعود هذا الابتكار العباسي إلى القرن التاسع ميلادي، حيث يمكن تمييز عدة مجموعات زخرفية مشكلة من العديد من التقنيات المختلفة، لا سيما البريق المعدني متعدد الألوان والطلاءات الشفافة الملونة. نجد هذا النمط من البلاطات في محراب جامع القيروان المؤرخة بالقرن التاسع ميلادي.

تظهر جليا تكسية خزفية ثنائية اللون بالجزائر بقلعة بني حماد في القرن الحادي عشر ميلادي، بقصر المنار وقصر البحر والمئذنة، مركبة من أشكال هندسية متعددة بينما أبيض وأخضر وأحيانا البني البنفسجي للمغنيز، هي تركيبات يمكن تعريفها ببوادر الفسيفساء الهندسية. نلاحظ أيضا بقلعة بني حماد استعمالا يجمع بين قطع رخامية بيضاء وقطع خزفية خضراء نجدها أيضا بمدينة بجاية خلال القرن الثاني عشر ميلادي.

تطورت هذه التقنية ما بين القرن الثالث عشر والرابع عشر ميلاديين وشهدت روجا كبيرا، حيث أصبحت عنصرا أساسيا في العمارة والزخرفة الداخلية، وبلغت ذروتها في مساكن المملكة الزيانية بتلمسان. تشهد اليوم القصور والمباني الدينية على ثراء التصميمات والألوان، الأمر الذي يشهد على مهارة وخبرة حرفي آنذاك.

من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر ميلاديين، أصبحت ممارسة حرفة الزليج أكثر انتظاما في الجزائر مع تبليط المساكن الأرستقراطية والقصور والأضرحة والنافورات والحمامات والمقاهي. ويعد مسجد قصبة الجزائر (قصر الداوي) الذي بني عام 1818م وقصر الباي 1826م بقسنطينة، آخر المواقع التي تمّ زخرفتها بثراء.

بعد 1830، كان هناك العديد من عمليات تهديم لمباني العمومية والخاصة (مسّت خاصة الجزائر العاصمة وضواحيها)، التي كانت جدرانها مزخرفة ببلاطات خزفية وأرضيتها ببلاطات فخارية سداسية الشكل تتصل فيما بينها بقطع صغيرة خزفية على شكل معين.

من الصعب حاليا وصف ثراء هذا العنصر الزخرفي، الذي لم يبق منه إلا نماذج قليلة، ولا تعكس عمليات الإحصاء التي تمّ إجراؤها لاحقا إلا جزءا ضئيلا من هذا التراث الغني.

اتخذت السلطات في ذلك الوقت قرارا باستيراد المواد المصنعة التي طغت على الحرف اليدوية، حيث تمّ توظيف بلاطات خزفية جديدة لتكسية الجدران، والاسمنت لتغطية الأرضيات في المنازل القديمة والمنازل التي تمّ إعادة تهيئتها أو في المباني الجديدة.

أثناء ظهور الطراز المعماري الموريسكي الحديث المسمى بأسلوب "جونارت" في نهاية القرن التاسع عشر ميلادي، تم استخدام البلاطة الخزفية بكل تصاميمها، حيث تمّ استعمالها جليا في المباني العمومية بمدينة

قسنطينة ومدينة تلمسان وخاصة بالجزائر العاصمة (في المدارس، مقر البريد المركزي، مقر الولاية، بلدية الأبيار، قصر الشعب، المساكن الخاصة وبعض محطات السكة الحديدية).

رغم حالة التهميش، تمكنت المهارة الجزائرية من الصمود، واستعاد الزليج مكانته في المنشآت المعمارية بكل أنواعها بعد استقلال البلاد.

4-تقنيات الصنع والتركيب

يتبع الحرفيون الجزائريون طرق متنوعة في صنع الزليج، تجمع بين التقنيات التقليدية والحديثة، وباستعمال مواد بسيطة، رغم ذلك يظهرون مهارة كبيرة. باستخدام الطين المقولب أو المقطع وفق نماذج مختلفة الأحجام والأشكال (مربعات، نجوم، مستطيلات، لوحات...)، يتم اخضاع القطع أو المربعات إلى طهي أولي على درجة حرارة 980 للحصول على بسكويت. بعد ذلك يتم تلوينها بمختلف الألوان مثل الأزرق، الأخضر، العسلي، الأسود، والأبيض قبل أن تخضع لطهي ثاني على درجة حرارة تتراوح ما بين 1000 و1020. بعدها يتم تجميع هذه القطع على فراش من الملاط سواء على الجهة الأمامية أو الجهة الخلفية، لتستخدم في تزيين الجدران والأرضيات، وفق تصميم مقد مسبقا على ورق شفاف، يكون هندسي أو نباتي الشكل.

تمنح طبقة المينا للخزف خصائص هامة، خاصة في الزخرفة المعمارية، كعدم النفاذية، مقاومة التأثيرات الكيميائية والاضطرابات الجوية، والاستقرار والاستدامة.

يعرف الزليج على شكل قطع باسم الزليج القيراطي، وهي ممارسة حية بالجزائر، مكيفة حسب احتياجات كل طلبية.

تقسم هذه التقنية إلى ممارستين مختلفتين، **القيراطي مستوي**، والذي يتمثل في قص القطع على بلاط ميناوي، والتي اختفت اليوم، و**القيراطي المحذب** حيث تقص القطع الصغيرة قبل طهيها وفق نماذج، وهي ممارسة واسعة الانتشار لدى عدد كبير من الحرفيين.

5. تدابير الحفظ

سمحت القرارات الهامة التي اتخذت على أعلى مستويات الدولة، والجهود المشتركة لعدة وزارات بحفز من وزارة الثقافة والفنون من استعادة الرؤية وضمان الاستمرارية لفن الخزف الميناوي.

استفادت تعاونة الخزافين الجزائريين من العديد من التدابير الداعمة والتحفيزية، مما سمح لها باستعادة الثقة وتقديم أفضل ما لديها في هذا المجال ليعود الزليج من جديد لتزيين المباني العامة والخاصة في جميع أنحاء البلاد، مما جعل حرفي الزليج، ومستخدمي الأماكن والزوار يشعرون بالفخر.

تم إنشاء مراكز التكوين المهني لضمان تعليم نظري وتطبيقي، واستقبلت هذه المؤسسات العديد من التلاميذ الذين أصبحوا حرفيين، ثم ناقلوا المعارف والمهارات.

أقدم الحرفيون المعلمون، المشاركون في هذه العملية، على فتح ورشات لتكوين المترشحين. حيث تتواجد اليوم في الجزائر المئات من المراكز التكوينية منتشرة عبر التراب الوطني (58 ولاية).

وفي نفس الوقت، باشرت غرف الصناعات التقليدية والحرف على تبني مبادرة لنقل المعرفة بهدف ضمان استمرارية ممارسة فن الزليج في إطار احترام الجودة والأخلاق، وذلك من خلال تنظيم دورات تدريبية في جميع أنحاء الوطن، في ورشات عمل الحرفيين المعلمين.

كما تم إدراج التراث الثقافي غير المادي عموما وفن الخزف المينائي الجزائري في برامج مدارس الفنون الجميلة أين يقوم الأساتذة، والحرفيين، والممارسين وحاملي هذا الفن، بنقل هذه المعارف والمهارات.

تزامنا مع هذا المقاربة، قامت المتاحف الوطنية بإنشاء ورشات بيداغوجية حول حرفة الخزف المينائي لفائدة المتدربين، والأشخاص ذوي الاحتياجات الخاصة والكبار الراغبون في اكتساب أساسيات هذا الفن.

من أجل استدامة فن الزليج، تم تطبيق مجموعة من التدابير التحفيزية وتقديم المساعدات المالية لفائدة حرفيي الخزف، منها منح بدون فوائد (0%)، توفير محلات، ضريبة منخفضة جدا، إعفاء جزئي أو كلي من ضريبة القيمة المضافة، وإعفاء من الضريبة على الدخل الشامل خلال السنوات العشر الأولى من ممارسة النشاط.

6- المجتمعات والجماعات والأفراد

يتكوّن مجتمع الحرفيون والحرفيون المعلمون الذين تم إحصاءهم بالمئات، وهم متواجدون عبر كامل التراب الوطني.

ترتبط بين الحرفيين علاقات ودية، وهم على استعداد تام لنقل معارفهم ومهاراتهم، وذلك من خلال المشاركة في مراكز التكوين، واستقبال المتدربين الشباب في ورشاتهم، مما يضمن جيلا جديدا واستدامة لفن الزليج.

تجدر الإشارة إلى أن بعض الحرفيين يمارسون هذا الفن في إطار عائلي، مع أشقائهم وأولادهم.

حرصا منهم على تبادل معارفهم ومهاراتهم، وتوحيد امكانياتهم للتغلب بسهولة أكبر على المشاكل التي يواجهونها، أنشأ حرفيين الخزف والزليج جمعية وطنية يطلق عليها "أيادي الجزائر" ممثلة بمكاتب في عدّة ولايات من الوطن.

تتيح هذه الجمعية الربط بين الحرفيين، وتسمح لهم بالالتقاء والتعارف والتعاون، مما يؤدي بصورة طبيعية إلى إنشاء آليات التضامن المهني.

بعد حوصلة تقارير مديريات الثقافة لولاية تلمسان، والجزائر، وقسنطينة، ومتحف قصر الباي بقسنطينة، والمتحف الوطني للآثار القديمة والفنون الإسلامية بالجزائر، تم إعداد بطاقة الحصر من قبل:

عمر حاشي

زهيرة ياحي

عقيلة جليد

عزالدين عن تري

زكية ليتيم

مريم قبيلية

مراجعة: البروفيسور سليمان حاشي